

في المعجم الفلاحي العربي (*)

عبد اللطيف عبيد

أستاذ بمعهد بورقيبة للفن الحديث - تونس

سيداتي، سادتي

المنشورة في « جنيف GENEVE » سنة 1974 والتي خصصتها لدراسة المدرسة الفلاحية الاندلسية في عهد ملوك الطوائف (اي في القرنين 5 و 6 هـ / 11 و 12 م) فان المقالات القليلة نسبيا التي خصصت لدراسة التراث العلمي الفلاحي ضئيلة القليلة ولا تضيف جديدا الى المقالات التي كتبها المستشرق الاسباني « مياس فاليكروسا » (J. M. Millas Vallicrosa) عن كتب علماء الزراعة الاندلسيين المخطوطة منها والمطبوعة والتي نشرها في مجلات استشرافية ومغربية عديدة ، وكذلك الى المقالات التي نشرها الامير مصطفى الشهابي في مجلتي مجمل اللغة العربية بالقاهرة ودمشق ودائرة المعارف الاسلامية .

ومنذ البداية اقول ، ان المعجم الفلاحي العربي ما زال مفقودا شأنه شأن بقية معاجم العلوم العربية ، وان كان يبحث عن نفسه باستمرار ، الا انه في الوقت نفسه مبعوث في الكثير من المؤلفات العربية المتنوعة المواضيع من لغوية وادبية وجغرافية ونقوية وعلوية على امتداد خمسة عشر قرنا من تاريخ العرب والمسلمين . ففي فترة ما قبل الاسلام نجد الشعراء قد تحدثوا عن بيئتهم الطبيعية وموقفهم منها

سأحدث اليكم في هذه الكلمة القصيرة عما يمكن ان نسميه بالمعجم الفلاحي العربي اي المصطلحات الفلاحية في اللغة العربية قديما وحديثا . ان هذا الموضوع ، الذي رايت انه يمكن ان تكون له علاقة بملقتنا هذا ، لم يبحث الى حد علمي ، بحثا يمكننا من ان نتيين بدقة الاتجاهات التي تسير وفيها المعجمية الفلاحية العربية . بل استطيع القول ان علم الفلاحة عند العرب انفسهم لم ينل الحظ الذي يستحقه من البحث اذا ما قارناه مثلا بالطب والصيدلة وعلم النبات ، وهي علوم حظيت بدراسات على غاية كبيرة من الاهمية وخاصة من قبل عدد من المستشرقين منهم « لوسيان لوكلاك » (Lucien Leclerc)

الذي نقل كتاب « الجامع لفردات الادوية والاغذية » لابن البيطار الى اللغة الفرنسية ونشره نشرة علمية محققة في باريس بين سنتي 1877 و 1883 . ذلك انه اذا ما استثنينا الدراسة القيمة التي انجزتها :

« لوسيان بولانس » (L. Bolens) وعنوانها Les méthodes culturelles au moyen-âge d'après les traités d'agronomie Andalous: Traditions et Techniques.

* التيت هذه الكلمة في الملتقى العربي الفرنسي الذي انعقد في مدينة الحمامات بتونس من 16 الى 20 مايو 1978 لبحث التعاون في مجال الفلاحة والبيئة ومقاومة التصحر .

والاحواض والصحاري وآلات السقي والقنوات وغيرها . وهكذا فان هذه المادة المعجبية التي جمعت من أنواء الامراب في القرن الثاني خاصة قد كانت اساس « الغريب المصنف » ثم « المخصص » واستواصل رحلتها عبر المعاجم العربية ليستقر أغلبها فيها ، على ان قسما منها قد بقى حيا أيضا في الاستعمال اللغوي لدى فلاحى البلاد العربية الى يومنا هذا ، وان اسبابها تحريف أحيانا في مستوى الصوت والصرف وتغير في المدلول أحيانا أخرى ، وبذلك تلتقى المعاجم ذات الثروة اللغوية الفلاحية باللهجات العالية في البلاد العربية .

الا ان الاهتمام بالبيئة الطبيعية والحيوانية وعمل الانسان المتصل بهما او ما يمكن ان نسميه تجوزا بعلم الفلاحة لم يبق منحصر في كتب اللغة . نشأ عهد نقل العلوم الاجنبية وخاصة اليونانية الى العربية وفي سنة 291 هـ - 905 م ، وضع ابن وحشية الكتاب الاول في الفلاحة بالعمربية وهو « الفلاحة النبطية » . وهذا الكتاب ، الذي ما زال مخطوطا ، ما فتىء موضوع جدل كبير بين المهتمين بالعلوم العربية ذلك اننا لم نملك بعد الدليل القاطع ان كان من تأليف ابن وحشية او هو نقله من النبطية او السريانية الى اللغة العربية . لكن الذي لا شك فيه هو انه يمثل نقطة البدء الاساسية في التأليف الفلاحي العربي وانه مصدر اساسي لأغلب مَنْ كَتَبَ في الفلاحة من العرب بعده .

ولقد تواصل التأليف في الفلاحة في المشرق بعد « الفلاحة النبطية » . فبعده ترجم سرجس بن هليسا الرومي كتاب « الفلاحة الرومية » لتسطوس الرومي ، كما خصص جمال الدين محمد بن يحيى الوطواط الكُتُبِي (المتوفى سنة 718 هـ / 1318 م) السُّفَر الرابع من كتابه : « بهاج الفكر ومناهج العبر » للنبات والزراعة . وفي القرن الثاني عشر الف عبد الغنى النابلسي (المتوفى سنة 1143 هـ / 1731 م) : « كتاب علم الملاحة في علم الفلاحة » اختصارا لكتاب كان وضعه رضي الدين محمد بن احمد الغزي العامري (المتوفى سنة 935 هـ / 1529 م) ويوجد مخطوط منه في المكتبة الوطنية بتونس . وان مختصر عبد الغنى النابلسي الذي طبع بدمشق سنة 1299 هـ / 1882 م قد تعرض الى اهم المسائل الزراعية ، وخاصة زراعة الاشجار المثمرة ، بكثير من الدقة مستعملا لغة اصطلاحية مضبوطة بل انه عمد أحيانا الى تحلية كتابه برسوم توضح طرق تقليم

ودورهم فيها ، فوصفوا ، بكثير من الدقة أحيانا ، مظاهر البيئة الجغرافية ومنابع المياه وادوات استخراجها من الآبار . ثم نجد ان القرآن ، الذي حث على الفلاحة ، قد كان منطلقا لنشاط لغوي كبير تمثل في جمع لغة البادية اي اللغة العربية الفصحى التي لم تتأثر في رأي لغويي القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) بلغة الاعاجم . ففي هذا القرن ، وكذلك في بداية القرن الموالي له ، وضع ابو عبيدة والاصمعي وابن الاعرابي وغيرهم رسائلهم اللغوية المشهورة في الخيل والابل والحشرات والبئر وغيرها من المواضيع المرتبطة بالبيئة الطبيعية والحيوانية . ان هذه الرسائل اللغوية او الكتب المفردة ستكون المادة الخام التي سيعتمدها ابو عبيد القاسم بن سلام الهروي (154-224 هـ / 770 - 838 م) لوضع معجمه الكبير « الغريب المصنف »

ان هذا الكتاب الذي هو حصيلة الكتب المفردة التي سبقته ، يمكن اعتباره بحق معجما مصنفنا او « معجم معان » « Dictionnaire analogique » اذ ان ابا عبيدة لم يرتب مادته اللغوية ترتيبا ابجديا وانما وضعه حسب ابواب يبلغ عددها سبعة وعشرين نذكر منها باب الدور والارضين ، وباب الخيل ، وباب الطير والهوام ، وباب الجبال ، وباب الشجر والنبات ، وباب المياه وانواعها ، وباب السحاب ، وباب الامطار والازمنة والرياح ، وباب الابل ونعوتها وباب الغنم ونعوتها الخ ... فهذا المعجم الذي ما زال القسم الكبير منه مخطوطا (اذ حقق زملاء من كلية الآداب بتونس خوالي ثلث ابوابه باشراف الاستاذ محمد رشاد الحزاوي) ، يهتم ، كما تلاحظون ، ببيادين عديدة يرتبط فيها الانسان بالارض والحيوان ، وان اهمية هذا المعجم المصنف لتتضح اكثر اذا عرفنا ان المعاجم اللغوية التي وضعت بعده كانت عالية عليه فاستندت مادته اللغوية ، ويأتى في مقدمة هذه المعاجم « المخصص » لابى الحسن على بن اسماعيل بن سيدة المرسى الاندلسي (398 هـ - 458 هـ) . يعد « المخصص » من اقدم المصنفات اللغوية الموسعة واوفرها مادة . وينقسم الى كتب يذكر بعضها بالرسائل اللغوية في القرن الثاني للهجرة ، ومن بين مواضيعه : الزراعة ، واعداد الارض ، وآلات الحرث ، وما ينبت بالرمال ، وانواع القمح والحبوب المختلفة والاشجار المثمرة والكروم ، والنبات الخاص بالجبال او السهول او ضفاف الانهار ، والآبار

تواصل مسيرة هذه المصطلحات وحيويتها في مجال الاستعمال الحى .

على أن اهتمام العرب بالفلاحة لم يقتصر على وضع كتب خاصة بها . ذلك أن الفلاحة حظيت طيلة المهود الإسلامية باهتمام كبير ، تطرقت في كتب النبات والحيوان والصيدلة والطب والطبقات والحسبة . وبما أنه يستحيل في هذا المقام ، أن نعرض ولو لنموذج من كل صنف منها ، فلنكتفى بالإشارة إلى أن أصحاب كتب الحسبة ، ومنهم يحيى بن عمر (المتوفى بسوسة سنة 289 هـ / 901 م) ، وابن عبدون الأشبيلي (الذي عاش في الأندلس في القرن السادس الهجري أي العادي عشر وبداية الثاني عشر الميلادي) قد أولوا هذا الميدان عناية كبيرة ، فاعتبر ابن عبدون « الفلاحة هي الممران ومنها المباش كله والصلاح كله » . وضبط يحيى بن عمر في « أحكام السوق » ، الذي هو أول تأليف ظهر في العالم الإسلامى يبحث في شؤون الأسواق ، المكاييل والموازين التى يباع بها الإنتاج الفلاحي ، فصرنا عرضا ، بأنواع المزروعات التى كان يتعاطاها فلاهو البريقية في عهده .

وان الرحالة العرب المشهورين كالمقدسى (4 هـ / 10 م) والبكري (5 هـ / 11 م) . والنجاشي (7 هـ / 13 م) قد اهتموا في كتبهم بفلاحة المناطق التى زاروها . كما نجد الاهتمام بالفلاحة في الموسوعات الادبية ومنها : « نهاية الأرب في فنون الادب » للنويري (677 هـ - 733 هـ) . بهذا الكتاب ، الذي شغل وظائف ادارية ذات بال في عهد المماليك بمصر قد خصص جانباً كبيراً من السنين الثامن والتاسع من موسومته الضخمة (التى طبع منها الى حد الآن ثمانية عشر سقراً) للحديث عن الضرائب التى تدفعها الفلاحون والتى هى مرتبطة بنوع التربة التى يستغلونها وطرق الري التى يتبعونها وأنواع المزروعات التى يتعاطونها . ومن هذه الناحية فلان هذا الكتاب هو ، كالعديد من الموسوعات الادبية الاخرى ، يزهو بالمصطلحات في جميع ميادين فلاحية مصر في عهد المماليك أي في القرنين السابع والثامن للهجرة .

واذا ما انتقلنا الى العصر الحديث وجدنا ان العرب عامة والمصريين خاصة قد اهتموا منذ بداية ما يسمى بمصر النهضة بعلم الفلاحة والعلوم المتصلة به . ويبدو ان احمد ندى ، الذي تعلم في فرنسا ضمن

الاشجار . وليست الكتب المذكورة هى كل ما كتب في الفلاحة في المشرق بعد ابن وهشية ، وان كانت في نظرنا أهمها . وان ما نستخلصه من تتبعنا لمسيرتها انها تخلصت شيئاً فشيئاً من السحر والخرافات والاستطراد عامة لتصبح مؤلفات ذات طابع علمى وعلى دقيق بالنسبة الى عصرها . وانها لتحتاج الى جرد مصطلحاتها قصد اثراء المعجم الفلاحي العربى الحديث بها .

لما بالنسبة الى المغرب فلا بد من التوقف عند فترة هامة من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية استغل فيها علم الفلاحة من غيزه من العلوم المتصلة به ، او كاد ، وخضع للمشاهدة والتجربة العملية الدقيقة . ونعنى بهذه الفترة القرنين الخامس والسادس للهجرة بالأندلس (11 و 12 م) ، فقد سمحت اللامركزية الادارية التى عرفتها الأندلس في عهد ملوك الطوائف باعتناء حكام طليطلة وإشبيلية وغرناطة بالفلاحة وتشجيعهم لعمالها الذين يأتى في مقدمتهم ، في نظرنا ، ابن بصال مؤلف « كتاب الفلاحة » الذى نشره في تطوان بالمغرب سنة 1955 خ . م . مياس فاليكروما ومحمد عزيزان ، لكن دون أن ننسى ابن واند واما الخير وابن الموام وغيرهم من اعلام المدرسة الفلاحية الأندلسية . قسم ابن بصال كتابه الى ستة عشر باباً اهتم فيها بالمياه والأرضين والسماد وغراسة الاشجار وتشذيبها وتركيبها وكذلك بزراعة الحبوب والبزور والبقول والرياحين وغيرها من مواضيع علم الفلاحة . وان دراسة هذا الكتاب ، الذى نحافه مؤلفه منحنى الاجاز والاختصار العملى (خلافا لابن الموام الذى كان في مؤلفه « كتاب الفلاحة » جماً لكل ما وقعت يده عليه من كتب السرومان والمشرقيين والأندلسيين) تدلنا على تطور كبير شهدته التقنيات الفلاحية في الأندلس في هذا العهد نتج عنه تخلص علم الفلاحة من كثير من الخرافات والاساطير واتصاف مصطلحاته بالدقة والضبط ، لذلك فان جرد كتب الفلاحة الأندلسية لاستخراج مصطلحاتها قصد اعتمادها اساساً من اساس المعجم الفلاحي العربى الحديث يبدو لنا امراً ضرورياً حتى لا نضطر الى القيام بعمل جديد في ميدان وضع المصطلحات افغانا اسلافنا عنه ، خاصة وقد ثبت لدينا بالمقارنة ان قسماً كبيراً من مصطلحات الأندلسيين في ميادين الزراعات الكبرى والاشجار المثمرة والري مستعمل لدى فلاحي البلاد التونسية حالياً ، وهو ما يدل على

ومن المعجم الفرنسي العربى « المنهل » الذي اعتمد اعتمادا كبيرا على معجم الشهابى ، الا انهم لا يتقيدون بذلك دائما فيجتهدون اجتهادا خاصا قد يكون مصيبا احيانا ، فمصطلح *Culture intensive* يترجمه الشهابى « بزراعة كثيفة » (عندما تستغل المزرعة الصغيرة برأس مال كبير للحصول على غلات كبيرة فى ارض صغيرة) ، وينقل عنه صاحب « المنهل » هذا المصطلح ، ويستعمل المهندسون التونسيون المصطلح نفسه او مصطلحا قريبا منه وهو « زراعة مكثفة » الا اننا نجد فى « معجم المصطلحات الجغرافية » الذي اصدره قسم الجغرافيا بكلية الآداب : « زراعة جاهدة » .

وفى الجملة ، فان الالفاظ الفلاحية العربية فى تونس ما زالت غير مضبوطة وهى متصفة بتذبذب كبير ، كما انها موضوع اجتهادات فردية اصبحت تحتاج الآن الى تنسيق جماعى عاجل . فكلية *Serre* الفرنسية التى تدل على بناء من زجاج او بلاستيك يقي المزروعات وخاصة الباكورات، يترجمها مجمع القاهرة بـ « دفيئة » والاب انستاس ماري الكرملى بـ « مصرى » ، ويضيف « المنهل » الى الترجمتين السابقتين ثالثة وهى « وام » . اما فى تونس فقد اصبحت اكثر من عشرة مقابلات لهذه الكلمة عند المهندسين والفلاحين فى نطاقى القول والمكتوب منها : « سار » (وتجمع على « سارات ») و « بيت بلاستيك » و « بيت باكورات » و « بيت مغطاة » و « بيت هواء مكيفة » و « بيت مكيفة » الخ .

ان هذا التذبذخ فى التسميات بقدر ما هو دليل على قدرة فى التعبير تتصف بها اللغة وعلى اجتهاد متكلميها فانها عقبة كداء فى الابلاغ تضخم المعجم تضخما يصعب معه تادية المفاهيم بدقة ، ومقابل هذا التذبذخ بالنسبة الى عدد من المفاهيم نجد مقرا يكاد يكون تاما فى التعبير عن مفاهيم اخرى ، لذلك يلتجئ الفلاحون والمهندسون والصحفيون الى التعبير عنها بطرق عديدة منها استعمال جملة تصفها بدل لفظة دقيقة واحدة .

واذا كان لابد من ان اختم هذه الكلمة عن الفاظ الفلاحة فى اللغة العربية فاننى اتول : اننا امام تراث لغوي مكتوب ضخم لم يقع جرده بعد ، بل ان اغلبه لم يحقق ، فاستعماله يثير من هذه الناحية مشاكل عديدة منها انه يصعب التأكد من مدلولات هذه الالفاظ القديمة التى مر عليها عهد طويل ، وان

بعثة دراسية ، هو اول من كتب فى الزراعة ، اذ ألف « حسن الصناعة فى علم الزراعة » الذى طبع فى القاهرة سنة 1874 فى مجلدين . وقد اهتمت المجمع العربية ، وخاصة مجمع القاهرة ، بضغط مصطلحات الفلاحة . الا ان أبرز عمل فى هذا الميدان يبقى ، بدون شك « معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية » لمصطفى الشهابى ، عضو مجعبي دمشق والقاهرة ، الذي نشر فى دمشق سنة 1943 ، وفى القاهرة سنة 1957 . يحتوي هذا المعجم على 9996 مصطلحا فلاحيا وضما هذا اللغوي والمهندس الزراعى بالاعتماد على كل الطرق المتبعة فى وضع المصطلحات العربية من اشتقاق ومجاز ونحت وتعريب .

وقد رجع الشهابى الى أهم المعاجم العربية القديمة اللغوية منها والمختلطة ، الا ان اعتماده عليها كان فى جملة قليلة .

ان كل بلاد المشرق العربى فى وقتنا الحاضر تدرس فيها الفلاحة باللغة العربية ولها كتبها المدرسية فيها ، وقد ساعدها ذلك على تنمية الفاظها الزراعية . اما بالنسبة الى المغرب العربى فيمكننا التعرف على وضع المصطلحات اللغوية فيه بالاقتران على تونس . ان الفلاحة ما زالت فى تونس تدرس فى مختلف مستويات التعليم والتكوين باللغة الفرنسية . الا ان أجهزة الاعلام ، التى توليها اهتماما مناسباً فى الجملة تستعمل اللغة العربية الفصحى والعامية المهيبة ، فالاذاعة والتلفزة تخصص لها برنامجا يوميا واربعة برلمج اسبوعية على الاقل ، كما ان بعض الصحف اليومية تخصص لها صفحات اسبوعية . يضاف الى ذلك مجلة شهرية بعنوان « تونسي الخضراء » يصدرها الاتحاد القومى للفلاحين ومنشورات عديدة تصدرها مصلحة الارشاد الفلاحي بوزارة الفلاحة . وقد وضعت ادارة الغابات بوزارة الفلاحة قاموسا فرنسيا عربيا يشتمل على حوالى 980 مصطلحا غابيا وذلك سنة 1972 . كما ان قسم الجغرافيا بكلية الآداب بتونس ، الذي يدرس بعض المسائل الجغرافية باللغة العربية ، قد وضع منذ سنتين معجما فرنسيا عربيا لمصطلحات الجغرافيا الريفية وجغرافية السكان والجغرافية الطبيعية وغيرها . وان نظرة سريعة على لغة الفلاحة فى هذه المجالات المذكورة تبين ان المهندسين والمرسين والصحفيين يجتهدون للتعبير عن مفاهيم الفلاحة ، فيستعملون عابية محلية ويستفيدون من العديد من المنشورات العلمية التى ترد من المشرق

الأيدي أمام هذا الواقع فإن ما قام به في هذا المجال
بعد ضئيلاً كماً وكيفاً .

واننا مدعوون الى ان نعبر بلغتنا القومية ، وفي
أسرع وقت ، عن المفاهيم الفلاحية الجديدة. وان لفتنا
بليديننا نستثمر ما امكن استثماره منها ونخضعها في
الباتى لاجل العلم والانسان العريس ، وانها في ذلك
لطيمة .

تراثنا الفلاحي الشفوي لم يجمع بعد ، بل انه
كثيرا ما نظر اليه نظرة ازدراء واحتقار واعتبرت
اللغة العامية متخللة في حين انها قادرة ، في ميدان
الفلاحة على الاقل ، على ان تسد شغورا كبيرا تشكوه
المربية النصيحة المصرية ، واننا من ناحية اخرى،
امام واقع فلاحى بل اقتصادي واجتماعى يتطلب منا
التعبير عنه وتلدية مفاهيمه المصرية. وان المجتمع
العريس والمغربى خاصة ، وان لم يقف مكتوف